البلبل الذبيح

المغفور له الدكتور زكي مبارك

بعث إلى المجلة بهذه الكلمة المرحوم الدكتور زكي مبارك قبيل وفاته بأيام يرثي المرحوم الأستاذ علي محمود طه ، وقد أخرناها انتظارا لأي مناسبة تدعو إلى نشرها والمناسبة اليوم هي حفلة تأبينه التي أقامتها نقابة المحامين في هذا الأسبوع وقد وصفناها في غير هذا المكان

أخي الأستاذ الزيات :

أرجو أن تكون بخير وعافية ، وأن تجد في المنصورة الغناء ظلا لا أجده في مصر الجديدة . وأرجو أن تكون تناسيت حزنك على البلبل الذبيح وهو الشاعر علي محمود طه

آخر العهد به يوم كان وكيلا لدار الكتب المصرية وكنت زميله هناك ، وكنت أفرح بلقائه فرح الحبيب بلقاء المحبوب

أظلمت الدار من بعده ، فنقلني معالي الدكتور طه حسين إلى منصبي الأول وهو تفتيش المدارس الأجنبية فاسترحت من رؤية مكتب علي محمود طه خاليا ، فقد ذوى الورد الذي كان يضمه في مكتبه كل صباح

ومع أن الأعمار بيد الله فأنا أذكر أن الشاعر مات بالمرض الذي مات به أبي وهو ضغط الدم ، فقد كان أبي لحيا لا يسيغ الطعام بدون لحم ، وكذلك كان الشاعر علي محمود طه فقد كان لحيا بصورة تفوق الوصف

دخلت دار الكتب فوجدت قنديل بك يبكي ، وسألت عن السبب فعرفت أن شقيق الفقيد حضر ليخبر مدير الدار أن الشاعر مات ، فبكيت أنا أيضا حتى شرقت بدموعي

أعطانا المدير إجازة لنشهد جنازته ، ولكن أخاه نقله بسيارة إلى المنصورة وطنه الأول

بين الكفر والإيمان

من حق الشاعر أن يكفر بالله ، وإن كان من واجبه أن يؤمن بالله ، ولا أدري كيف كنت حين نظمت القصيدة الآتية وأنا أخاطب البلبل الذبيح :

يا ماضياً لبلاد ليس يشهدها ... من يرثيها وجفن العين وسنان
جميع من يرثيها كلهم نفر ... حجوا إليها وهم بالموت مهمان
إن الحياة وهذا الموت يطلبها ... في شرعة الصدق تزوير وبهتان
قالوا سناق غداً ما سوف يفرحنا ... في جنة عندها البواب «رضوان»
فيها الفواكه من تين ومن عنب ... وفي جوانبها حور وولدان
هذا جميل ، ولكني بلا أمل ... ففي حياتي ضلالات وكفران
إن الذي أسكت الغريد أسكته ... وفي مشيئته جور وطغيان
أبى إلى النار ماض خالد أبداً ... ففي مسالكها للشر ميدان
قالوا سينصب في يوم الحساب لنا ... عند الإله قسطاس وميزان
الموت نوم فلا صوت ولا خبر ... خلوا فؤادي فإن النوم سلطان
هذا «علي» مضى لم يبكه أحد ... ولا أفاض عليه الحزن فنان

أوحى إلى الشعر ما أوحى ومن عجب
أن يصدر الشعر وحياً وهو شيطان

***

أما بعد فهذه قصيدتي في رثاء البلبل الذبيح الذي لم يرثه أحد من الشعراء ، وكان يجب أن يرثيه زميله أحمد رامي

كان البلبل يمر بالقهوة مرور الطيف ليتحدث معي ، وكان يأنس بلقائي ، وكنت أتحداه أن يساجلني فلا يستطيع ، لأنه لا يقوى على الارتجال ، فقد كان يتأنق في شعره كما يتأنق في هندامه ، والشعر في ذاته تأنق

في سهرة بمنزل توحيد بك السلحدار ومعنا الأستاذ الزيات أخذ البلبل ينشد أشعاره ، وكان قوي الذاكرة ، فقلت : أنا أخذت راية الشعر من أيديكم ، فيقول : لن تستطيع يا دكتور

أخرجت من جيبي ورقة وقرأت الأبيات الآتية :

عجب الناس من بقاء أديب ... رغم بغي الخطوب والأيام
أنا أيضاً عجبت من طول عيشي ... في زمان مجنح بالظلام
إن يوماً يمر من غير غم ... هو طيف يمر في الأحلام
لا صديق يرد دبى عليه ... لا حبيب بقي بعهد الغرام
قد سئمت الحياة أو سئمتني ... فرمتني بكيدها الحذام
قال لي صاحبي : تواضع قليلا ... تجد الرزق صافياً كالمدام
قلت : رزق من الرياء يوافي ... هو عندي من الطعام الحرام

قال البلبل : هذا شعر نفيس

وزارني الأستاذ مرة ثانية في القهوة فرآني مكروباً فسأل عن حالي فأنشدته قول زكي مبارك

يا سائلا ما الحال ... الحال أنت الحال

وسألني عن أسباب كربي فقلت : كان لي موعد غرام في مشرب تريومف بمصر الجديدة وهو يطل على الصحراء فانتظرني المحبوب دقائق وانصرف فصرخت بهذه الأبيات :

دقائق أضجرتك فطرت عني ... وغادرت المكان بلا انتظار

فما حالي وقد مرت شهور ... شربن الصبر من طول اصطباري

جلست أساس الصحراء وحدي ... وأشرب لوعة مزجت بنار

قال البلبل : وهذا أيضاً شعر نفيس

كان الشاعر علي محمود طه يكره الشاعر محمد الهراوي ، وكانت بينهما مهاجاة تذكر بالمهاجاة بين عبد اللطيف النشار وعثمان حلمي ، وهما شاعرا الإسكندرية ، وكان البابل مغرماً بكآبة الهراوي ، فأمضى معه إلى القهوة فيقول الهراوي : أشعارك يا سيد علي من فتات موائد الشعراء الأجانب !

فيقول البلبل : وأنت يا سيد محمد لا تدخل السينما ولا تشرب الخمر ، فكيف تكون شاعراً ؟

فيقول الهراوي أنا قلت :

هم أحسنوا دم الأنام شراباً ... كيف لا نستحل ماء الكروم

فيقول البلبل : هذا بيت جميل

ديوان الهراوي

الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف بك يشهد بأن لجنة التأليف والترجمة والنشر قامت على قدميها بما جنت من أرباح « سمير الأطفال » وكان مقرراً على جميع المدارس الأولية ، ومع ذلك بخلت اللجنة بطبع ديوان الهراوي

ودعوت أخاه الدكتور حسين الهراوي لطبع الديوان فوجد للنفقات غالية

فهل يمكن إنقاذ هذا الديوان قبل أن يضيع ضيعة أبدية ؟

الشبيبي في مصر

في العدد المقبل سأنشر في الرسالة قصيدة حييت بها معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي زميل الأستاذ الزيات في المجمع اللغوي ، وقد نظمتها في الإسكندرية والبحر يضرب أمواجاً بأمواج :

محطة الرمل جلتني وحيرتني ... بلا صواب

بها ظباء بغير عد ... ولا بيان ولا حساب

عشرون ألفاً وألف ألف ... أطلت في جهم عذابي

زكي مبارك

في تأبين الدكتور زكي مبارك

المجد الطموح الجريء

للأستاذة زينب الحكيم

عرفت الدكتور زكي مبارك بالسماع به والقراءة له في بادئ الأمر ، فقد كان له جيل من القراء والمعجبين ، كما كان له حلقة من المنافسين المحنقين

فلما رأيته .. وجدته رجلا متقشفا أشد ما يكون التقشف ، فوقعت في حيرة شديدة ، لأني عرفته غير هذا في كتابه « النثر الفني » الذي كنت سأشترك في تقريظه بعد أيام قلائل ، وحدث أن اجتمعنا في الندوة ، وتجلت شخصية زكي مبارك ، وفاض علمه واطلاعه في الردود الفجمة التي واجه بها كل مادار حول كتابه وكسب المعركة . ولا غرابة في ذلك فهو ابن الأزهر المجتهد المستوعب ، وابن الجامعات المصرية والفرنسية ، وابن جامعة الحياة العملية والصحافة. رجل نابه من الريف يزحم إلى القاهرة للتعلم ، لم يتملق عظيما ولم يستجد ثريا لينجح في دراساته أو لينال رزقه ... إنما هو رجل نجح نجاحا عزيزا مشرفا ، فإذا لم يكن في حياة الدكاترة زكي مبارك إلا هذا ، وإلا أنه شق طريقه بالنحت بإبرة في صخور الحياة الصلبة لكفاه فخرا وخلودا ، فكيف بنا وزكي مبارك له فلسفة ، ولقلمه مدرسة ، ولنفسه طموح وجموح وثورة ؟! أودع كثيرا من هذا كله مؤلفاته العديدة ، ومقالاته العنيفة

في ذمة الله الكريم فتوة سكنت ولما تفته النهضات
في ذمة الله الرحيم فتية شبل يتمم درسه وفتاة
في ذمة الله العزيز فقيدنا وعليه من رب الملا الرحمات
يا آله لا تجزعوا إن الذي في الخلد ذكراه إليه حياة

أيها السادة والسيدات :

أهدى إلى المبارك مجلدات (ليلى المريضة في العراق) ومما رأيته على غلاف الجزء الأول منها لعلي الجارم بك ما يأتي : — « لقد ابتكر زكي مبارك فنا جديدا حين نقل الغزل والتشبيب من الشعر إلى النثر » وهذه شهادة من أديب لأديب لا يستهان بها

وكنت أتمنى لو أن زكي مبارك لم يسرف في هذا ، فإن العبقرية الجماعة يجب أن تنظم وأن تلتزم قواعد وحدودا ، ولا سيما وليس عندنا معاهد للنوابغ ترعى نبوغهم . وتحرص على توجيههم

أنظر إلى نتاج تجارب زكي مبارك فيما قاله في الجزء الثاني من كتاب ليلى : —

« أنا أشرب المر من عصير الحياة لأحيله على سنان القلم إلى شراب سائغ للشاربين » إن هذا القول يدل فعلا على أن الدكتور زكي قد ضحى بنفسه في سبيل غيره

قابل قوله هذا بقول من قال :

لا أذود الطير عن شجر ذقت (طعم) المر من ثمره

لترى مقدار تضحية زكي ، وميلغ أنانية غيره . لقد أوذي زكي مبارك في سبيل النقد الأدبي ... والنقد في الشرق ليس بسائغ ، ولا يقبل على أحسن وجوهه

لهذا حمل زكي أعصابه فوق طاقتها ، وظلم وقته ونفسه ؛ فهل يئس ؟ كلا ، وإنما أفات زمام نفسه من يده في أحد أطرافه ، ولكنه قبض عليها على باقي نواحي نفسه الذكية السامية

استمع لبعض ما قال عن النواحي الإنسانية في الرسول حيث تتجلى فلسفته، وتنجلي عبقريته في إحدى مقالاته الفريدة :

١ — « يا محمد إنك إنسان ونبي ، والنبوة عهد من عهود العظمة الإنسانية ، إنك آية من آيات التاريخ

٢ — أحبك أيها الرسول لأنك كنت إنسانا له ذوق وإحساس ، ولم تكن كما يصورك الجاهلون الذين رأوا عظمتك في أن تكون حاكيا لوحي السماء — وما أنكر وحي السماء — ولكفى أومن بأن في السريرة الإنسانية ذخائر من عظيم الصدق والروحانية ، وأنت أول من أعز السريرة الإنسانية

٣ — أحبك أيها الرسول وأشتهي أن أتخلق بأخلاقك السامية ، وأحب بنوع خاص أن أفر من الشيطان كما فررت منه .. حتى أسلم بجهادي من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس

٤ — أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحة للخطأ والصواب

ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك ؟

وما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين ؟

٥ — لقد فكرت مرات كثيرة في الاقتراب من روحك ، فلم يمنعني عائق لأن بيني وبينك وشيجة من الإنسانية

٦ — ودعاني الشوق إلى مساءرة خيالك ، فرأيتك إنسانا كاملا لا تقع عينه على غير الجميل من شمائل الأصدقاء

٧ — وصحبتك في إحدى غزواتك فهالني أن تكون رجلا نبيلا يصبر على الظمأ والجوع والأذى في سبيل الحق

وشهدتك يوم الموت وأنت تواسي ابنتك فتقول :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم » فعرفت أن الكرب في الدنيا مقصور على عظماء الرجال

أيها الناس : هذا طرف عابر من حياة وعبقرية وفلسفة زكي مبارك .. فيها عظة وعبرة ، وتدل على مبلغ ما خسرناه بموته ، ولكن الحياة حق كما أن الموت حق (والله خلقكم ثم يتوفاكم) وزكي مبارك لم يمت فهو حي في قلوبنا ومشاعرنا — والسلام

نرشب الحكيم